﴿ءَآلْـَٔـنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: 91]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التأييسُ من القبول بعد إعلان الإيمان، في غير وقت القبول

مناسبةُ الآية لِما قبلَها: أنَّه لمّا ظهرَ الذُّلُّ على فرعون باضِّطراره إلى إعلانِ الإيمانِ بالذي آمنتْ به بنو إسرائيلَ: "زادَه تعالى ذُلًّا بالإيئاسِ من الفلاحِ بقولِه على لسان الحالِ أو جبريلَ ﷺ أو ملكِ الموتِ أو غيرِه من الجنود ﷺ: ﴿ءَآلْـَٔـنَ﴾، أي: أتجيبُ إلى ما دُعيتَ إليه في هذا الحينِ الذي لا ينفعُ فيه الإجابةُ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: أصْلُ الفَساد: خروجُ الشَّيء عن الاعتدال، قليلًا كانَ الخروجُ عنه أو كثيرًا[2]، يُقال: فَسَدَ الكَلامُ، أي: خَرَجَ عن حَدِّه، ويُقالُ: فَسَدَ الشَّيء فسادًا، وأفسدَه غيرُه، وضِدُّه: الصَّلاحُ[3]، والفسادُ عامٌّ في الكُفر والضَّلال وكلِّ ما هو ضارٌّ، والصَّلاحُ عامٌّ في الإيمان والرُّشدِ وكلِّ نافعٍ[4]. والمقصودُ بـ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الآيةِ: (الخارجون على الحقِّ بِالجَوْرِ والظُّلمِ والتَّمْويهِ بِالسِّحْرِ)[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إيمانُ اليأسِ لا ينفعُ؛ لفقدِه عنصرَ الاختيارِ، ووجودِه محضَ الاضطرار

قال اللّه تعالى لِفَرعونَ: آلآن تُقِرُّ للّه بالعبوديَّة، وتستسلِم له بالذِّلَّة، وتُخلصُ له الألوهيَّةَ بعدَ فواتِ الأوانِ، وقد عصيتَهُ قبلَ نزولِ عذابِه، وكنتَ مِن المُفسِدينَ في الأرضِ الَّذين ظَلَموا العبادَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(2) الرّاغب، المفردات، والزبيديّ، تاج العروس: (فسد).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/100.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278.

وأضَلّوهم، وصَدّوهم عن سبيلِ اللّه، فهلّا أقرَرتَ بما أقرَرتَ به الآن، وبابُ التَّوبةِ لك منفتحٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أدخلَ همزةَ الاستفهام على ظرف الزَّمان، والمرادُ من الاستفهام الإنكارُ أصالةً، وممّا ينشأُ عنه التَّوبيخُ والتَّأييسُ؛ لأنَّه لم يؤمنْ تصديقًا بالبلاغ الإلهيِّ، وإنَّما أظهر ذلك القولَ للنَّجاة[2].

الإيمانُ في غير حينِه، يستوجبُ الإنكارَ، وعدم الإقرار

نكتةُ حذفِ فعلِ القولِ في سياق مقول محذوف:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مقولٌ لفعل القولِ المحذوفِ تقديرُه: قال اللّه، و"حَذْفُ الفعلِ المذكورِ وإبرازُ الخبرِ المحكيِّ في صورة الإنشاءِ من الدَّلالة على عِظَمِ السُّخط وشدَّةِ الغضب ما لا يخفى"[3]، والفعلُ المحذوفُ هو ردٌّ وجوابٌ لقول فرعونَ؛ إذ قال: ﴿ءَامَنتُ﴾، فحُذِفَ فعلُ القول؛ ليكونَ البدءُ بالاستفهامِ لإظهار شدَّةِ السُّخطِ.

من الإيجازِ البليغِ، حذفُ ما يدلُّ عليه المقولُ في البيان المفصح

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ حذفٌ آخرُ بعد تقديرِ فعلِ القولِ المحذوفِ؛ لأنَّ الإنكارَ ليس متسلِّطًا على الظَّرف، بلْ على إيمانِه في هذا الوقتِ، فتقديرُ المحذوفِ بين الظَّرف والاستفهام، أي: (أتؤمن الآن) "قُدِّر الفعلُ مقدَّمًا؛ لأنَّ الاستفهامَ لكونِه مقتضيًا للحدث أولى بالفعل"[4]، وحذْفُه

تكرارُ الحذفِ أبلغُ في إظهار متانةِ التَّعبيرِ وعلوِّ البلاغةِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/292، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/388، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.
(2) المطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/75.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/171.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/556.

لظهوره من السّياق؛ لأنَّه لمّا أعلنَ أنَّه آمنَ أجابَه بإنكار الإيمان عليه، والظَّرفُ ليس هو المقصودُ بالإنكار، بل بإيقاع الإيمانِ فيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الحاليَّةِ في السّياق:

إفناءُ الحياةِ بالاستكبار والإفسادِ، يدلُّ على زيف الإيمانِ وقتَ العسرة

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مُفْتَتَحَةٌ بالواو الحاليَّة، فالجملةُ في موضعِ "حالٍ من فاعل الفعلِ المقدَّرِ، جِيءَ به لتشديدِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ على تأخير الإيمانِ إلى هذا الآن، ببيان أنَّه لم يكن تأخيرُه لعدم بلوغِ الدَّعوةِ إليه، ولا للتَّأملِ والتَّدبُّرِ في دلائله وآياتِه، ولا لشيءٍ آخرَ ممّا عسى يُعَدُّ عُذرًا في التَّأخير، بلْ كان ذلك على طريقةِ الردِّ والاستعصاءِ والإفساد"[1]، أي: أتؤمنُ الآن والحالُ أنَّك قد عصيْتَ؟

سرُّ ذكرِ المعصيةِ ﴿عَصَيْتَ﴾ دونَ الكفر:

إعلانُ الانقيادِ بالإيمان، ينقضُه العصيانُ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وبَّخَه بالعصيان دونَ الكُفْرانِ؛ وذلك لمّا خُتِمت الآيةُ السّابقةُ بإعلان الإسلامِ الدّالِّ على الإذعانِ؛ ناسبَ أن يوبِّخَه "بالعصيان المقابلِ للإذعان، دونَ الكفرِ المقابلِ للتَّصديق"[2].

نكتة التَّعبير عن العصيان بالماضي المسبوقِ بقد:

مَنْ دَأَبَ على العصيانِ؛ تحقَّقَ فيه، وصار راسخًا

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم وصفَ عصيانِه بالفعل الماضي المسبوقِ بقد للدَّلالة على كونِه كان راسخًا بالعصيان، دائبًا فيه، وأنَّ عصيانَه قد تأكَّدَ، وثبت وتحقَّق بأمارةِ (قد)، وهذا يزيدُ الإنكارَ؛ فإنَّه "كان عاصيًا لله ومفسدًا للدّين الذي أرسلَه الله إليه، ومفسِدًا في الأرض بالجَوْر والظُّلم والتَّمويهِ بالسِّحر"[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278.

إيثارُ لفظِ (قَبْلُ) دونَ (من قبل) في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٔـنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ جاء الظَّرفُ بلا حرفِ الجرِّ (مِن) للدَّلالة على أنَّ معصيتَه كانت حاصلةً مدَّةَ عُمْرِه[1]، وكانت مستغرقةً "جميعَ زمانِ الدَّعوةِ الذي قَبْلَ هذا الوقتِ، ومعصيةُ المَلِكِ توجبُ الأخْذَ والغضبَ كيف كانتْ"[2].

مـن شَـمَـلَ العـصـيـانُ كـلَّ حـيـاتِـه، لـم ينـفـعـه إيـمـان بعد فواته

بلاغةُ الإيجازِ في حذفِ ما يُضاف إليه ﴿قَبْلُ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٔـنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم حذفَ المضافِ إليه، فحذَف ما يُضاف إليه ﴿قَبْلُ﴾ إيجازًا[3]، لظهور المعنى من السّياق، فالمرادُ (قبلَ الآن)، أي: قبلَ وقتِ الغرق.

ظـهـورُ المـعـنـى يجيزُ الإيجاز، ويؤثره للإفصاح والإبانة عن المراد

وجهُ العطفِ بالواو في الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ معطوفٌ قولِه جلَّ شأنُه: ﴿عَصَيْتَ﴾، فهو "داخلٌ في حيِّز الحالِ، أي: وكنتَ من الغالينَ في الإضلال والضَّلالِ عن الإيمانِ"[4]، فيكونُ التَّوبيخُ في الاستفهام عن إيقاع الإيمانِ وقتَ الغرقِ، وقد سبقَ منك الفسادُ والعصيانُ.

تـعـمـيـمُ التَّوبيخِ بتأخير الإيـمـانِ، مع تـقـدُّمِ الإفـسـادِ والعصيانِ

دلالةُ فعلِ الكونِ الماضي ﴿وَكُنتَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٔـنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم بفعل الكونِ لبيان رسوخِه ودوامِه في الإفساد، فوصفَ "سبْحانه فسادَه بالاستمرار طولَ حياتِه وحياةِ أمثالِه، فعبَّر بـ (كنتَ) التي تدلُّ على الاستمرار، ووضْعِه في صفِّ

الكونُ في وصفِ مـا، دلـيـلُ الـرُّسـوخِ فيه والمُكْنة

(1) الإيجيّ، جامع البيان: 2/154.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/75.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

المفسدين في الأرض، وقد كان أشدَّهم عتوًّا وطغيانًا"[1]، وذلك للدَّلالة على كونِه متَّصفًا بالعراقةِ في الفسادِ والإفسادِ.

نوعُ (أل) في قولِه ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ من السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عرَّف المفسدين بالألفِ واللّامِ الدّالَّةِ على الجنسِ، وليس المرادُ كونَه من قومٍ معهودين بالفسادِ، فوَجْهُ الذَّمِّ ليس لكونِه من أولئك المعهودين، بل لكونِه اتَّصفَ بصفةِ الفسادِ التي هي جنسٌ مخالفٌ للخيرِ والصَّلاحِ.

من أجناسِ النّاسِ جنسٌ مُفسِدون، لا نفعَ منهم يرتجى

وجهُ جمعِ لفظ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في السّياق المبين:

عبَّرَ بصيغةِ الجمعِ عن ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ إشارةً إلى أنَّ المفسدين جمعٌ كبيرٌ، وحزبٌ مُترسِّخٌ في الإفسادِ، فقولُه: ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ "أي: العريقين في الفساد والإفسادِ"[2]، ويدلُّ على أنَّ هناك فئةً قد شُهرت به، وهذا يدلُّ على شدَّةِ فسادِه.

للإفسادِ حزبٌ عريقٌ، لا ينفكُّ سالكًا له كلَّ طريق

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بدلَ (وكنت مفسدًا):

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وصفَه بكونِه من المفسدين، وهذا أبلغُ من وصفه بكونِه مفسدًا[3]؛ لأنَّه يقتضي أنَّ هناك فئةً قد شُهرت بالفسادِ، وأنَّه قد بلغَ من شدَّة فسادِه أن كان جديرًا بالتحاقِه بهم.

الكونُ في فئة مشهورةٍ بوصفٍ ما، أبلغُ في الوصفِ من الإفرادِ

دلالة الأسلوبِ الخبريِّ في تحسير فرعونَ وتبكيتِه:

في قولِه تعالى: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ خبرٌ المراد منه تأييسُ فرعونَ، فهو "أسلوبٌ خبريٌّ ليس المرادُ منه فائدةَ الخبر، ولا لازمَ الفائدةِ، بل المرادُ هو تحسيرُ فرعونَ وتبكيتُه، وتعجيلُ المساءةِ إليه؛ لذلك جعلَ اللّه ختامَه شرَّ ختامٍ"[4].

اضطرارُ ادِّعاءِ الإيمانِ، دليلُ التَّحسُّرِ في غيرِ أوانِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3628، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/76.

بيانُ التَّقريرِ في جملة التَّذييلِ في السّياق الجليل:

العنوانُ بالإفساد، يقرِّرُ سبقَ المعصيةِ وغلبةَ الفساد

ختمَ الآيةَ بقوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، تذْيِيلًا متضمِّنًا تقريرًا لمضمون الكلامِ قبلَه[1]، فانتفاءُ إظهارِه الإيمانَ في وقته؛ لأنَّه كان راسخًا في الكفر، وقد دأبَ على الإفساد، وأصرَّ عليه؛ فلا يَنْفَكُّ عنه.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/76.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»